# الحسّ الدينيّ في رحلة ابن جبير

(الدكتور **سيف محمّد المحروقي**، أستاذ مساعد، جامعة الإمارات العربيّة المتّحدة)
(الأستاذ الدكتور **شفيق محمّد الرّقِب**، أستاذ، جامعة الإمارات العربيّة المتحدة)

ملخّص

يدرس هذا البحث الحسّ الدينيّ في رحلة ابن جبير. وقد تبيّن أنّ هذه الرحلة تتنفّس في جوٍّ دينيّ عميق. و تجلّى ذلك في مظاهر متعدّدة، من أبرزها صدق توكّل ابن جبير في رحلته على الله؛ فهو في حركته الرحليّة يطلب العون من الله في تيسير السّفر، والاستعاذة من وعثائه. كما أبدى اهتمامًا ملحوظًا في وصف المظاهر الدينيّة في البلدان الّتي زارها، ووصف الفعل الإنسانيّ المنبثق من عقيدة الإسلام في مجالات الحياة المختلفة، ونقل ابن جبير في رحلته مشاهد تستجيش المشاعر لزيارة البيت الحرام أثناء تأديته فريضة الحجّ؛ وكأنّه أراد أن يشوّق النّاس إلى زيارة الديار الحجازيّة، وأداء فريضة الحجّ. وأبدى إعجابه ببعض الشخصيّات الإسلاميّة لما كانت تتحلّى به من صفات الإنسان المسلم كما ينبغي أن يكون، ولا سيّما صلاح الدين الأيّوبيّ الّذي بسط العدل في الرعيّة، وجاهد الفرنجة، وهزم جيوشهم، واستردّ القدس منهم. وكانت نظرته إلى الآخر الفرنجي تقوم على أساس دينيّ، لذا فقد رأى أنّ التعايش معه ليس ممكنًا لأنهم غازون محتلّون.

**الكلمات المفتاحية:** الحسّ الدينيّ– رحلة ابن جبير

# Religious Perceptions in Ibn Jubayr's Travel Narrative

**Abstract**

This paper explores the religious perceptions in Ibn Jubayr's Travel Narrative, which is overwhelmed with intense religious feelings and prayers to Allah to bless his steps and bestow grace upon his journey. The paper argues that Ibn Jubayr's narrative captured the religious traditions of the places he visited during the entire journey. The narrative also depicts the Islamic-oriented behavior of the people in these destinations, which punctuated different aspects of their daily life. The narrative includes a highly emotional description of his visit to the Holy Shrines in Makkah during his performance of the Hajj rituals. Apparently, Ibn Jubayr aimed to invoke the religious feelings of the Muslim communities worldwide and urge them to follow on his heels and visit the sacred shrines in Al-Hejaz region. Moreover, the narrative also delineates Ibn Jubayr's attitudes towards some prominent Islamic figures such as Salah Eldin Al Ayoubi, the Muslim warrior who implemented the law of justice among his subjects, defeated the invading armies of the crusaders and restored Jerusalem from their occupation. Due to his religious background, Ibn Jubayr categorized the crusaders as invaders and aggressors. Therefore, he denied the potential of establishing a dialogue

# الحسّ الدينيّ في رحلة ابن جبير

(الدكتور **سيف محمّد المحروقي**، أستاذ مساعد، جامعة الإمارات العربيّة المتّحدة)
(الأستاذ الدكتور **شفيق محمّد الرّقِب**، أستاذ، جامعة الإمارات العربيّة المتحدة)

مقدّمة:

تعدُّ رحلة ابن جبير من أشهر الرحلات في الأدب العربيّ من حيث مادّتها والسمات الأدبيّة الّتي تمثّلت فيها، بالإضافة إلى طبيعة الرّجل نفسه، وما كان يتحلّى به من صفات كان لها تأثير واضح في بناء رحلته، حتّى عدّها كراتشكوفسكي ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربيّ(1). كما أثنى ابن الخطيب من قبلُ على الرجل ورحلته بعبارة موجزة دالّة، حيث قال:" وكلامه المرسل سهلٌ حسنٌ، وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذكره شهير، ورحلته نسيج وحدها، طارت كلّ مطار..." (2).

وقد حظيت هذه الرّحلة باهتمام الدّارسين، كلّ حسب اختصاصه؛ فمنهم من درس الجوانب الجغرافيّة فيها، ومنهم من اهتمّ بمظاهر العمران البشريّ في البلدان الّتي وصفها، ومنهم من درسها باعتبارها نصّاً أدبيّاً[3].

ومن يقرأ هذه الرحلة يسترعي انتباهه قوّة الشعور الدينيّ فيها، حتّى غدت الرحلة في منطلقها وعبورها ومستقرّها تتنفّس في جَوٍّ من الحسّ الدينيّ العميق الّذي أضفى عليها جماليّة محبّبة، لا من قوّة التيّار الدينيّ فحسب، بل من جماليّات التعبير عن ذلك، حتّى غدت الرحلة في مراحلها المتعدّدة تستثير مشاعر المتلقّين الدينيّة وذائقتهم الفنيّة.

وثمّة أسباب متعدّدة، ربّما كان لها دور في إذكاء هذه المشاعر الإيمانيّة في الرحلة، منها طبيعة ابن جبير نفسه؛ فهو يبدو في رحلته رجلاً عميق التقوى، قويّ الإيمان، صحيح العقيدة، قويّ التأثّر بما يعاينه من مظاهر إسلاميّة في البلاد الّتي زارها، ويصف ذلك–كما يقول ابن الخطيب – وصفاً مؤنسًا ممتعًا يُثير "سواكن النفوس إلى الرّفادة إلى تلك المعالم المكرّمة، والمشاهد العظيمة"[4]. كما سيتضح لنا في سياق هذا البحث.

يضاف إلى ذلك أنّ الرحلة في أصلها رحلة حجٍّ؛ فالمتتبّع لخطّ سيرها ومجريات أحداثها يستشفّ أنّها كانت تسير وفق مخطّط يرسم الطّريق للحجّاج القادمين من المغرب، لذا كان صاحبها يتحدّث بين الفينة والأخرى عن العقبات الّتي تعترض سبيلهم، والمشاقّ الّتي يعانون منها في بعض البلدان، كما كان يتحدّث عن أخلاق النّاس وطبائعهم وطرائق معاملتهم للغرباء، ولا سيّما الحجّاج.

وثمّة عامل آخر يمكن أن يضاف إلى ما سبق يتمثّل في طبيعة اللحظة التاريخيّة الّتي جرت فيها الرحلة، سواء أكان ذلك في المغرب أم المشرق، وهي لحظة تمتاز بقوّة الشعور الدينيّ بسبب الحروب الّتي استعر أوارها بين الفرنجة والمسلمين في الأندلس وديار الشام، حيث خاض كلا الطرفين المتصارعين هذه الحروب تحت شعار الدّين، وعمل كلٌ منهما على استجاشة الشعور الدينيّ في نفوس النّاس بشتّى السُبل. ولعلّ ابن جبير أدرك، وهو يجتاز البلاد الّتي كانت تخضع لسيطرة الفرنجة أنّ هؤلاء كانوا يسعون إلى تغيير الوجه الحضاريّ لهذه البلاد، ثمّ إنّ بلاد الشام، ولا سيّما بيت المقدس والأرض الّتي باركها الله قد شهدت قدوم عدد من الرحّالة الأوروبيين. وكان جلّ هؤلاء يفدون إلى أداء الحجّ في بيت المقدس. وقد جعل هؤلاء الرحّالة وكدهم التنقيب عن كلّ أثر للنصرانيّة في هذه البلاد. ومن يقرأ بعض هذه الرحلات يخرج بنتيجة مؤداها أنّهم طمسوا الوجه الإسلاميّ لهذه الديار، فغدت–من وجهة نظرهم– نصرانيّة تاريخًا وحضارة[5]؛ أقول لقد أدرك ابن جبير، ومعه جمهرة العلماء والأدباء المسلمين ذلك، فواجهوا هذه الهجمة الحضارية بالتأليف في فضائل البلدان الإسلاميّة، فألّفوا في فضائل بيت المقدس، وفضائل الخليل، وفضائل دمشق وغيرها، وبذلوا جهودا كبيرة في التنقيب عن المأثورات الدينيّة الإسلاميّة التي تبرز الصبغة الإسلاميّة لها... ومن هنا يمكن أن نفهم اهتمام ابن جبير في رحلته بالجوانب الدينيّة، وهو يتحدّث عن البلدان الّتي زارها، ووقوفه وقفات طويلة عند المساجد والمزارات والأضرحة والرباطات...

ومن ثمّ، فإنّ هذا البحث يهدف إلى دراسة تجلّيات الحسّ الدينيّ في رحلة ابن جبير، مراوحًا بين المنهج الوصفيّ والتّحليليّ حسب ما يقتضيه الموضوع المدروس، دون يغفل الإشارة إلى الجوانب الجمالية في سرد ابن جبير ووصفه كلّما استدعى الأمر ذلك.

أولاً- تجربة السَّفَرِ والشعور الدينيّ:

إنّ تجربة السَّفَر في حدّ ذاتها توقظ المشاعر الدينيّة في النفس، فقد أرشدنا الرسول سيدنا محمّد صلى الله عليه وسلم في هديه النبويّ إلى دعاء يستهلّ به المسافر سفره، ويعزّز في النفس معنى التوكّل على الله سبحانه وتعالى؛ لذا ألفينا ابن جبير في كل حركة من حركاته في رحلته يتّجه بكليّته إلى الله سبحانه، يلتمس منه العون والتأييد؛ فعندما انفصل عن غرناطة للنيّة الحجازيّة المباركة سأل الله تعالى أن يقرنها "بالتَّيسير والتّسهيل وتعريف الصُّنع الجميل"[6]. وعندما رام السَّفر إلى عيذاب دعا الله أن يُيسّر عليه مرامه بمنّه وكرمه[7]. وتكثر مثل هذه الأدعية في تنقله من مكان إلى آخر؛ من مثل: "والله ييسّرُ لنا كلّ صعب، وييسّر لنا كلّ عسير بعزّته وكرمه"[8] ، ومثل "واللهُ الميسّر لا ربّ سواه"[9]، ومثل "نرجو لطيف صُنْعِ الله عز وجلّ"[10].

ويبدو صدقُ اعتماد ابن جبير في رحلته على الله تعالى في استجلاب المنافع ودفع المضارّ، لذا فهو غالباً ما يستهلّ نزوله في أيّ مكان بالدعاء؛ فعندما دخل مصر المحروسة-مثلاً- استهلّ نزوله فيها بدعاء"عرفّنا الله فيها الخير والخيرة، وتمّ علينا صنعه الجميل بالوصول إلى الغرض المأمول"[11]، وإذا ما حلَّت سنةٌ جديدة دعا الله بقوله: "عرّفنا الله بركة هذه السنة ويُمنها، ورزقنا خيرها ووقانا شرّها، ومنَّ علينا بنظم الشمل فيها، إنّه سميع مجيب"[12].

وعانى ابن جبير في رحلته كثيراً من مشاقّ السَّفر، ولا سيّما أهوال البحر، وقد كان في هذه الأهوال يأوي إلى ركن شديد من الاستسلام إلى الله وتفويض الأمر إليه، والثّقة به؛ فعندما طال مكوثه في عكة انتظاراً لهبوب الريح المواتية، فإنّه كان ينتظرها انتظارَ وعد صدقٍ من الله المبدع في حكمته، المعجز في قدرته[13]. وعندما تعطّل المركب بعد مغادرته عكّة إثر هبوب ريح غربية عاتية عبّرَ عن هواجس نفسه تعبيراً دقيقاً مغلّباً الأمل

على اليأس، ثقةً بلطف الله سبحانه وتعالى[14]. كما هبّت عليهم وهم في عرض البحر بعد ثمانية وعشرين يوماً من مغادرتهم عكّة ريحٌ أخرى كان البحر فيها هائلاً، ولم يجد ابن جبير ومن في المركب لهم ملاذاً إلا الله ينتظرون منه الفرج بصبرٍ جميلٍ ويقين بمنّه وفضله[15].

وعاين ابنُ جبير في رحلته كثيراً من الأمور التي أدهشته وأثارت انفعاله، وهو غالباً ما كان يعبّر عن انفعاله وتعجّبه بعبارة تُسْنِدُ أسرار هذه الأمور اللطيفة الخفيّة إلى الله جلّ وعلا؛ فعندما حلّ في مدينة عيذاب – مثلاً – وجدها صحراءلا نبات فيها، قد أَلِفَ أهلها فيها عيش البهائم ولا يفضّلون بلدة غيرها، فيستغرب ابن جبير ذلك قائلاً " فسبحان محبّب الأوطان إلى أهلها، على أنّهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنس"[16].

وهذه النزعة الدينيّة العميقة في نفس ابن جبير جعلته شديد الحساسية بالأمور المتعلقة بالنّساء؛ فعندما زار مدينة قنا بمصر جعل من "مآثرها المأثورة صوْنَ نساءِ أهلها والتزامهنّ البيوت، فلا تظهرُ في زقاقٍ من أزقتها البتة صَحَّتْ بذلك الأخبار عنهن"[17]. وحذّر ابن جبير في عبارة موجزة من فتن الهوى ببغداد، بسبب "الحُسْن الحريميّ"[18]، الذي ينشأ بين هوائها ومائها حتى ذاع ذكره بين الناس، بل ربّما خشي على نفسه الفتنة، كما يوحي بذلك قوله:" ففتنُ الهوى، إلا أن يعصم اللهُ، بها مخوفة"[19]. ووصف ابنُ جبير موكبَ الخاتون بنت الأمير مسعود والخاتون أمّ عزّالدين صاحب الموصل زوج قطب الدين مودود بن زنكي بعد عودتهما من أداء فريضة الحج وصفاً تفصيلياً، ووصفه بأنه مشهد زُخرُفيٌّ يستحقُّ أن يستخلصَ منه المرء العبرة. بل إنّه يستغرب أن يكون لهاتين السيّدتين أجناد برسمهما ويأتمرون بأمرهما، وينهي وصفه للمشهد بعبارة تنطوي على نظرة غير راضية لهذا "المُلْك النّسائيّ"[20]، وذلك إذ يقول: "واللهُ لا يجعلنا تحت قول القائل: ضاع الرّعيلُ ومن يقوده"[21].

***

واهتمّ ابن جبير في رحلته بتصوير مظاهر الحياة الدينيّة في البلدان التي زارها، وركّز على إبراز الوجه الإسلاميّ لهذه البلدان، فجعل وُكْدَهُ الحديث عن المساجد

والمشاهد والمزارات، ومجالس الوعظ، وحلقات التعليم، بل إنه كان يزورها، ويؤدي الصلوات فيها، ويحضر مجالسها، ويستمع إلى مجالس وعظها، وينقل صورًا مؤثّرة لها.

فعندما زار الإسكندرية، وتجول في أرجائها، تبينّ له أنّها من أكثر بلاد الله مساجد، وربّما كان بعضها مسجداً ومدرسة، وكلُّها بأئمّة راتبين[22]. وعندما زار طنطا صلّى عيد النحر سنة578هـ فيها، وأبصر "بها مجمعاً حفيلاً، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة"[23]. وحرص ابن جبير على إحصاء الآثار والمشاهد بمدينة القاهرة، بل إنّه ذكر أنّ الله سبحانه يحافظ على القاهرة ويمسكها ببركة آثارها ومشاهدها[24]. ويقدّم وصفاً معماريّاً دقيقاً لمشهد الحسين بن علي. وشاهد ابن جبير من "استلام الناس للقبر المبارك، وإحداقهم به، وانكبابهم عليه، وتمسّكهم بالكسوة داعين باكين متوسّلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدّسة، ومتضرّعين؛ ما يذيب الأكباد، ويصدع الجماد"[25]، وينهي وصفه بالدّعاء بأن ينفعه "الله ببركة ذلك المشهد الكريم" وأن يقدّسَ "اللهُ العفوُّ الكريم الّذي فيهِ بمنّه وكرمه"[26]. وشاهد ابن جبير في القاهرة مساجد كثيرة، منها أربعة حفيلة البنيان أنيقة الصّنعة، حضر الجمعة في أحدها، وَأُعجب بالخطيب الّذي أخذ في خطبته مأخذاً سنّيّاً، وقد كان يلطِّفُ الوعظَ ويرقّقُ التَّذكير حتَى تخشعَ القلوب القاسية وتنفجرَ العيون الجامدة"[27].

وعندما وصلَ ابن جبير مدينة إخميم في الصعيد زار مسجد ذي النون المصريّ ومسجد داود أحد الصالحين الزهّاد، "وهما مسجدان موسومان بالبركة، دخلنا إليهما متبرّكين بالصلاة فيهما"[28]، وأعجب ابن جبير التسامح الدينيّ بين المسلمين والنصارى في مدينة إخميم، وزار هيكلاً عظيماً في شرقي المدينة، ووصفه وصفاً مستقصياً عبَّر فيه عن إعجابه بمظاهر العمران الكَنَسِيّ، فشأنُ هذا الهيكل كما يقول: "عظيم ومرآه إحدى عجائب الدنيا الّتي لا يبلغها الوصف ولا ينتهي إليها الحد"[29].

واسترعى انتباهَ ابن جبير مجالسُ الوعظ الّتي كانت تقام في مدينة بغداد، ومن هذه المجالس مجلس الشيخ الإمام رضي الله القزوينيّ. وقد حضر ابن جبير مجلسه، ووصف براعته في الوعظ، وتصرّفه في فنون القول، وقوة تأثيره في نفوس السّامعين "حتى أطارتها

خشوعاً، وفجَّرتها دموعاً"[30]. وشاهد مجلس وعظ أقامه رئيس الحنابلة في بغداد ابنُ الجوزي، وقد أثنى ابن جبير عليه، وأدهشته طريقته في الوعظ، واسترساله في قراءة القرآن الكريم، واستدعائه لآياته البيّنات في موقفه ذاك، وإتيانه "برقائق من الوعظ، وآيات بيّنات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً إلى أن علا الضَّجيج، وتردَّد بشهقاته النَّشيج"[31]. ويجعل ابن جبير حضوره هذه المجلس إحدى المكاسب الّتي حقّقها في رحلته، بل إنه لو لم يشاهد في رحلته غير هذا المجلس " لكانت الصفقةُ الرّابحة، والوجهةُ المفلحة النّاجحة"[32].

وحرص ابن جبير على زيارة المساجد والزَّوايا والرِّباطات والمقامات والأضرحة في بلاد الشّام، مع الاهتمام ببيان الفضائل الدينيّة للمدن الّتي يحلّ فيها، وتصوير الفعل الإنساني المنبثق من عقيدة الإسلام في مجالات الحياة المختلفة. وسأقفُ هنا عند حديثة عن مدينة دمشق، وقد استهلّ الحديث عنها بذكر فضائلها الدينية وجمال بيئتها الطبيعية؛ فقد "تشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه، صلَّى الله عليهما، منها إلى ربوة ذات قرار معين"[33].

وأبدى ابن جبير اهتماماً ملحوظاً بالمسجد الأموي، ووصفه وصفاً دقيقاً؛ فوصف موقعه ومساحته وأبوابه وشمسيّاته وقبابه وأعمدته.. واسترعى انتباهه تنوّعُ النشاطات الدينية والتعليمية فيه، وصوّر اهتمام وليّ الأمر آنذاك بتعليم القرآن الكريم، والسنّة المشرفة للناس. وتحدث عن الحلقات الجماعية التي كانت تعقد لقراءة أجزاء القرآن الكريم، ومن هذه الحلقات (المجتمع السّبْعيّ)، الّذي يُعقد كل يوم إثر صلاة الفجر، ويقرأ فيه سبع من القرآن الكريم، ويحضر هذه المجتمع عدد كبير من الناس[34]. وفيها (المجتمع الكوثريّ) ويكون كل يوم بعد صلاة العصر، ويُقرأ فيه من أوّل سورة الكوثر إلى آخر القرآن الكريم، ويحضره خلقٌ كبير ممّن لا يحفظون القرآن الكريم[35]. كما صوَّرَ المرافق الكثيرة المحلِّقة بالمسجد والمخصّصة للتعبُّد وطلب العلم، مثل مرافق الغرباء[36]، والزوايا[37] والصوامع[38] والمقصورات[39]، وصحن المسجد. وكان مكاناً لاجتماع النّاس كل ليلة بين صلاة المغرب والعشاء[40].

وحرصاً من ابن جبير على تقديم بلاد الشام في إطار من القداسة الدينيّة، فقد استقصى كثيراً من المساجد التي كانت تقع خارج دمشق، ويقوم أغلبها على المزارات والمشاهد وقبور الأولياء والصالحين[41].

وتتبّع ابن جبير في رحلته أخبار المتصوفة وزار رُبُطَهُمْ، وأشارّ إلى مكانتهم الرفيعة في المجتمع الشاميّ، حتى إنّه وصفهم بـ (الملوك) [42]. وأُعجب باهتمام المياسير من أهل الشام بالوقف على هذه الرُّبُطِ والتّسابق على الإنفاق عليها، ومساهمة النّساء في ذلك. وقد حضر ابن جبير بعض مجالس هؤلاء المتصوفة وحلقات ذكرهم، وأثنى عليهم، ووصفهم بأنهم على طريقة شريفة، وصور المواجد التي تأخذهم في مجالس سماعهم وذكرهم حتى إنّ بعضهم ليفارق الحياة من شدة الوجد وقوة الانفعال[43].

وتتبّعَ ابن جبير بعض مظاهر السلوك الاجتماعيّ المرتبط بالمناسبات الدينية؛ فقد أُعجب باحتفال أهل دمشق بيوم عرفة حيث يجتمعون في مساجدهم عصر ذلك اليوم يدعون الله، ويتضرّعون إليه، ويتأسّفون على ما فاتهم من زيارة البيت العتيق[44]، كما صوّر احتفال أهل الشام بالحجّاج بعد عودتهم من أداء فريضة الحجّ، حيث يخرجون رجالاً ونساءً لاستقبالهم، والاحتفاء بهم، وتقديم الشّراب والطّعام لهم، وصور النّساء وَهُنَّ يعطينهم الخبز، فإذا أكلوا منهم اختطفنه من أيديهم، وأسرعن إلى أكله تبرُّكاً به[45].

ثانياً– التَّشويقُ لزيارة الدِّيار الحجازيّة وأداء فريضة الحجّ:

كان الحجّ – ومازال – من أهمّ العوامل التي دفعت المسلمين إلى الارتحال إلى الديار الحجازيّة. وقد اكتسبت رحلة الحج من الأندلس طبيعةً خاصةً نظراً لعبد المسافة، ووعثاء السفر، ومشاقّ الطريق، بالإضافة إلى الأخطار التي كانت تُحدق بالأندلس؛ لذلك ثار في الأندلس سؤال مفاده: أيّهما أولى الحج أم الجهاد. عندها أفتى ابن رشد الجدّ أن الجهاد أولى، وأنّ "فرض الحج ساقط عن أهل الأندلس في وقتنا هذا لعدم الاستطاعة الّتي جعلها الله شرطاً في الوجوب، لأنَّ الاستطاعة القدرة على الوصول، مع الأمن على النفس والمال، وذلك معدوم في هذا الزمان"[46].

وقد أَذْكَتْ هذه الحوائل مجتمعة مشاعر الحنين في نفوس الأندلسيين لقصد الديار الحجازية. وكلَّما اقترب موسم الحج تاقَتْ نفوسهم لزيارة البيت العتيق، واشتدّ شوقُهم لقصد تلك البقاع الطاهرة. وقد عبّر الأندلسيّون عن ذلك في صور شتّى من التعبير الأدبيّ، لعل أبرزها ما عُرف بـ (أدب الرحلات الحجازيّة) التي ازدهرت عند المغاربة والأندلسيين، ودوّنوا بعضها في أسفار وصفوا فيها مشاهداتهم ومشاعرهم إزاء البقاع المقدَّسة[47]. وعبّر بعض الكتاب الذين لم تُتَح لهم فرصة الحج عن حنينهم إلى الديار الحجازية بتسطير رسائل الشوق إلى الديار المقدسّة، وإرسالها مع بعض الحجاج لتُقرأ عند الكعبة المشرّفة أو عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم[48]. كما عبّر الشعراء عن شوقهم لزيارة الدّيار الحجازيّة بقصائد مدحوا فيها الرسول صلى الله عليه، ونقلوا حنينهم إلى زيارة البيت الحرام، ووصفوا ما يعانونهم من مواجد وأشواق[49]. وكان ملوك المغرب، وغيرهم من ذوي اليسار يرسلون الهدايا إلى الحرمين الشريفين لتُوزَّع هناك، أو تُعطى للقائمين عليها، والمشرفين على الحجّ[50]. وعلى الرّغم من ذلك كلّه، فقد ظل طريق الحجّ لاحبًا، وظلَّت مواكب الحجيج الأندلسيّ تأتي الديار الحجازيّة لأداء فريضة الحجّ، مثل رحلة ابن جبير موضوع هذه الدراسة. وقد حرص هذا الرحالة – بوعي أو بغير وعي– على تشويق الناس لزيارة الدّيار الحجازيّة، وأداء فريضة الحج، وعمل على استجاشة الوعي الجمعيّ للأندلسيّين، وَشَحْنِ هذا المجتمع الّذي يعيش أزمةَ كينونة بطاقة روحيّة تربطه بالقاعدة التراثيّة الأولى للإسلام في مكة المكرمة، وما جاورها من الأراضي المقدسة.

دخل ابن جبير مكة محرماً بعمرةٍ يوم الخميس الثالث عشر لربيع الآخر، ووصف مشاعر الفرح التي غمرت نفسه وهو يسري ليلاً إلى مكة، "والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، والليل كشف .. قناعه"[51]. وصوّر انخراط الحجاج في هذه الليلة بالتلبية وارتفاع أصواتهم بالدعاء، وابتهالهم إلى الله – سبحانه – بالثناء[52]. وقد كانت هذه الليلة التي ستسفر عن دخول مكة "عروس ليالي العمر، وبكر بنيّات الدهر"[53].

وتأخذ ابنَ جبير نشوةٌ عارمة حين تقع عينه–في هذه العمرة– على الكعبة المشرّفة فيرسم لها صورة فنية جميلة، تمثّلت فيها الكعبة "عروساً مجلوّة مزفوفة إلى جنّة الرضوان،

محفوفة بوفود الرحمن"[54]. ثمّ يشرع بعد ذلك في وصف أعمال العمرة في عبارة موجزة إلى أن تحلّل منها، وأقام في دار قريبة من الحرم، مشرفة عليه وعلى الكعبة المقدسة.

مكث ابن جبير في مكة ثمانية أشهر وثلث شهر، حيث غادرها يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجّة سنة 579هـ، بعد أن أدّى فريضة الحج. وقد بدت له مكّة المكرّمة في أثناء هذه المدة الطويلة سِفْراً مفتوحاً يتجاوز حدود الرقعة الجغرافية ويتعانق فيه الدينيّ بالجغرافيّ بالتاريخيّ بالوجدانيّ، ويعيد، بعد أن تشرَّبت روحه بمرأى البيت العتيق، إنتاج ذلك في متنٍ رحليّ يستبطن فيه الرّائي تجلّيات المشهد: المكان الجغرافيّ، والعمران الدينيّ، وحركة الناس: المعتمرين، والحجّاج، وأهل مكة، ومن وفدوا إليها في موسم الحجّ يبتغون منافع لهم.

وقد سلك ابن جبير في تأليف رحلته الحجيّة مسلكاً يستثير الوجدان ويستجيش المشاعر لزيارة الديار الحجازية وأداء فريضة الحج، فهو يمزج في سرده ووصفه بين الجانبين: المعرفي والوجداني، بين التعريف بعمارة البيت المقدس، ووصفه وصفاً هندسياً دقيقاً اعتماداً على المقاييس، وهو مكوّن أساسي من مكوّنات أدب الرحلات، والحديث عن مناسك الحج والعمرة، وفضائل المكان.

ولا يسعى هذا البحث إلى تتبّع ابن جبير في رحلته المكية هذه، وإنما سنختار مشاهد من هذه الرحلة لنرى كيف كان ابن جبير يسعى إلى أن يدمج القارئ في سرده ووصفه، بحيث يتماهى معه، فتتولّد لديه حالة ذهنية تحفز مخيّلته، وتهيّئُها لخوض مثل هذه التجربة واقعياً.

ومن هذه المشاهد، مشهد كسوة الكعبة يوم النَّحر؛ حيث استهلّ ابن جبير حديثه عن ذلك بوصف الأجواء الاحتفاليّة، حيث حُملت الكسوة على أربعة أجمال "تقدّمها القاضي بكسوة الخليفة ... والرايات على رأسه، والطبول تهدرُ وراءه "[55] ، ثم يرسم صورة بصرية أخّاذة لهذه الكسوة بعد إسبالها على الكعبة تداخلت فيها الألوان الجميلة، والآيات القرآنية الكريمة، والرسومات الرقيقة، والأدعية للخليفة، فبدت الكسوة "خضراء يانعة تقيّد الأبصار حسناً، في أعلاها رسم أحمر واسع". وعلى الرغم من حداثة هذه

الكسوة وتجدّدها كلّ عام، فإنّها ظلت مرتبطة بآي الذكر الحكيم الذي جعل هذا البيت مثابة للناس، لذا فقد رُقم في الصفح المواجه للمقام الكريم من هذه الكسوة بعد البسملة (إنّ أول بيت وُضع للنّاس لَلَّذي ببكّة مباركاً فيه) [56]. وينهي ابن جبير هذا المشهد الوصفيّ بعبارة تمثل انعكاس المشهد على وجدانه، وتستثير من خلال الدعاء مكامن الشوق لزيارة البيت الكريم؛ فقد "لاح للنّاظرين منها أجمل منظر، كأنها عروس جُليت في السندس الأخضر، أمتع الله بالنظر إليها كل مشتاقٍ إلى لقائها، حريص على المثول بفنائها بمنه"[57].

ولا يفتأ في رحلته يتحدث عن مكانة مكّة المكرمة وفضائلها وآثارها المقدسة مستنداً إلى الحقائق الدينية والتاريخية، لذا ألفيناه يترسّم خطوات النبوّة في هذه المدينة، ويتتبّع آثار الصحابة الذين ضحّوا بأنفسهم في سبيل الله، حتى ينشروا دين الله في الأرض. فكفاها شرفاً أنها "منشأ النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، الّذي آثره الله بالتشريف والتكريم...، وهي مسقط رؤوس جماعة من الصاحبة القرشيين المهاجرين الّذين جعلهم الله مصابيح الدّين ونجوماً للمهتدين"[58].

ويستنطق ابن جبير وهو يتجوّل في أرجاء مكّة المكرّمة الدلالات الدينيّة والتاريخيّة والوجدانيّة لكلّ مشهد يراه، وكلّ مكان يحلّ فيه عبر محطات مميّزة من تاريخ الدّعوة الإسلامية، مع التركيز على النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته الكرام، فيصف – مثلاً – دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، ويذكر فضائل هذه الدار: ففيها مولد فاطمة الزهراء، وفيها ولدت فاطمة سيّدي شباب أهل الجنّة: الحسن والحسين.

ويصفُ مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم، والتربة الطاهرة الّتي هي أول تربة مسّت جسمه الطاهر، والموضع الّذي وُلد فيه؛ في إشارات دالّة تضفي على المكان ألقاً علوياً مستمداً من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، "فيا لها تُربة شرّفها اللهُ بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام ومولد خير الأنام"[59].

ويمضي ابن جبير في استقراء المكان؛ فيصف دار الخيزران[60]، ودار أبي بكر الصديق[61]، وقبّة تقع بين الصفا والمروة تُنسب لعمر بن الخطاب[62]، ومسجداً منسوباً

لأبي بكر[63]، وقبة جبريل[64]، ومصطبة على مقربة من دار خديجة رضي الله عنها "فيها متّكأ يقصد النّاس إليها، ويصلّون فيها، لأنّ في موضعها كان موضع قُعودُ النبي صلى الله عليه وسلم"[65].

حتّى جبال مكّة، فقد اختزنت في ذاكرةِ حجارتها تاريخاً من جهاد النبي صلى الله عليه وسلم في حمل الرسالة، وأداء الأمانة، فيتوقّف عندها ابن جبير في رحلته مستعيناً بكل ما يستطيع الاستعانة به من العناصر الدينية والمعرفية الّتي شحنت نصَّه الرحليّ بأجواء دينية، متجاوزاً جفاف اللغة التقريرية، أملاً في أن يتابعه القارئ ويترسّم خطاه. ومن هذه الجبال، جبل أبي قبيس. وقد صعد إليه ابن جبير، وصلّى في مسجد في أعلاه، وهو مشرف على مكة: "ومنه يظهر حسنها وحسن الحرم واتّساعه وجمال الكعبة المقدسة القائمة في وسطه"[66]. ويذكر ابن جبير بعض فضائل هذا الجبل الّتي كان من أجلِّها أنّ فيه "موضع النبي صلى الله عليه وسلم، عند انشقاق القمر له بقدرة الله عز وجل"[67]. ويعجب ابن جبير كيف اجتمعت مثل هذه الفضائل لجبل جامد، ويعلّق على ذلك قائلاً: "وناهيك بهذه الفضيلة والبركة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء حتّى الجمادات من مخلوقاته"[68].

ويستدرج ابن جبير – عندما يصف البيت الحرام – القارئ إلى أن يتتبّع معه معالم هذا الحرم الشريف، حتى إن القارئ ليتجوّل في جغرافية النصّ الرحليّ المكتوب بفكره وحسّه وشعوره وخواطره. ولعلّ هذا يفسر استغراق ابن جبير في تفاصيل المكان الموصوف، حتّى إنّه لم يدع ركناً من أركان الحرم الشريف أو جداراً من جدرانه، أو مَعلماً من معالمه إلا وصفه مستخدماً لغة الهندسة ومقاييسها من ناحية، ومرتكزاً على التشويق العاطفي والتحفيز الديني من ناحية ثانية بلغة طيّعة سهلة تتلاءم والدلالة والمستهدفة، مع دقة في التعبير، وبناء صور تلامس الحسّ الديني للقارئ. ولنستمع إليه وهو يصف باب الكعبة المشرفة بلغة يتداخل فيها التحديد الدقيق الّذي تستدعيه مهنية الرحلة، والتعبير الفنيّ الجميل الّذي تقتضيه أدبيتها، يقول: "والبابُ الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر

شبراً وصف وهو من فضّة مذهبة، بديع الصنعة، رائق الصفة، يستوقف الأبصار حسناً وخشوعاً للمهابة التي كساها الله بيته"[69].

وَيُحِيي ابن جبير – وهو يصف وقوفه في مقام إبراهيم ومعاينة الكعبة المشرفة – في نفوس المتلقّين فيضاً من التداعيات الشعوريّة يستعيدون من خلالها جملة من المواقف والصور الّتي وردت في القرآن الكريم، ما أكسبَ نَصَّهُ طاقة تعبيرية توحي بظلال الموقف والأحاسيس المرافقة له. يقول: "عاينّاه وتبركنا بلمسه وتقبيله، وَصُبّ لنا من أثر القدمين المباركتين ماء زمزم فشربناه... فسبحان من ألانه لواطئه حتى أثّرت فيه... سبحان جاعله من الآيات البينات"[70]، ويصف ابن جبير الحالةَ الانفعاليَة التي تغمرُ النّاسَ وهم يعاينون هذه الآية البيّنة ويشاهدون البيت الكريم "ولمعاينته ومعاينة البيت الكريم هَوْلٌ يُشْعِرُ النفوسَ من الذهول، ويطيش الأفئدة والعقول، فلا تُبصر إلا لحظات خاشعة، وعبرات هامعة، ومدامع باكية، وألسنة إلى الله، عز وجل ضارعة داعية"[71].

ويمضي ابن جبير في وصفه للمسجد الحرام ضمن خطّة محكمة يتتبّع فيها جزئيات المكان المرئيّ وتفاصيله، جامعاً في وصفه بين التعريف بالمكان وعمارته والشّعائر الّتي يمارسها المسلمون عند كل مكان. وكلّما اقترب ابن جبير من المكان ازداد استلابُه له، ونقلُه عن حالته، وانطلق يصف ما يعاينه ويعانيه بلغة مفعمة بالروحانيّة، كما في قوله يصف ما شعر به عند تقبيله الحجر الأسود: "وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعّم به الفم حتى يودَّ اللاثم أنْ لا يُقلع فمه عنه.. فمتّعنا الله باستلامه ومصافحته، وأوفد عليه كل شيّق إليه بمنّه"[72]. ثم يرسم صورة بصريّة جميلة لنقطة بيضاء في هذا الحجر، وقد لاحت "كأنّها خالٌ في تلك الصفحة المباركة، وفي هذه الشامة أثرٌ يقول: "أنّ النّظر إليها يجلو البصر"[73].

ويتحدّث ابن جبير عما خَصَّ الله تعالى به مكّة من الخيرات والبركات، ويجعل ذلك دليلاً على قداستها ومكانتها، ويربط ذلك بـ (الدعوة الخليليّة الإبراهيميّة)[74]. وبقوله تعالى في سورة القصص: "أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آَمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ "[75]. ويجعل ذلك معجزة من المعجزات، لأنّه ظاهر متّصل إلى يوم القيامة "وذلك أنّ أفئدة

الناس تهوي إليها من الأصقاع النائية والأقطار الساطعة ، فالطّريق إليها ملتقى الصادر والوارد.. والثّمرات تُجبى إليها من كلّ مكان، فهي أكبر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر"[76]، ولا يذكرُ ابن جبير مظهراً من مظاهر الخير في مكة المكرمة إلا أتبعهُ بعبارة تدلّ على أنّ هذا الخير بسبب مكانة هذه المدينة المقدسة عند الله، كما في قوله: "فهذه بركة لا خفاءَ بها، وآية من آياتها التي خص الله بها"[77].

ويصف ابن جبير مذاق الفواكه والطيبات التي تُجلب إلى مكّة ورائحتها. ولعل الأمرَ العجيب حقاً إشارته إلى أثر قُدسيّة المكان في هذه الفواكه والأرزاق، "فمذاقها في مكة المكرمة أفضل من مذاقها في البلدان الأخرى[78]، أما اللَّبنُ بها فهو في نهاية الطِّيب لا"تميزه من العسل طيباً ولذاذة"[79]. وكذلك لحوم ضأنها فهي "أطيب لحم يؤكل في الدنيا"[80]. ويعلّق ابن جبير على ذلك قائلاً: "وبركة البلد الأمين قد تكفّلت بطيبه لاشك فيه"[81]. وينهي ذلك بدعاء يُشوّقُ فيه النّاسَ لزيارة هذا المكان الشريف وذلك إذ يقول: "والله يجعل فيه رزقاً لِمَنْ تشوّق بلدته الحرام وتمنّى هذه المشاهد العظام، والمناسك الكرام بعزَّته وقدرته"[82].

ويتحدّث ابن جبير عن رُخص الأسعار في مكّة المكرّمة مع أنه بلدٌ لا ضيعة فيهِ ولا قوامَ معيشة إلا بالبضائع المجلوبة إليها، بالإضافة إلى كثرة المجاورين فيها، ويجعل ذلك دليلاً على يُمنها وبركتها وقداستها[83].

ثالثاً: نقد الفرق الضالة والبدع الدينية:

كان ابن جبير شديد الحساسية لمظاهر السلوك الدينيّ والاجتماعيّ للبلدان التي زارها، وكان يعرضُ هذا السلوك على تعاليم الدين الحنيف، أو على ذوقه الأندلسيّ وما ألفه في مغرب العالم الإسلاميّ، حتى غدا هذا المغرب نموذجاً فريداً في وجدانه وفكره، فقال فيه "وليتحقّقْ المتحقِّقُ ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنّهم على جادّة واضحة لا بُنيّات لها. وما سوى ذلك مما بهّذه الجهات المشرقية، فأهواء وبدع، وفرق ضالة وشيع"[84].

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الزنكيّون والأيوبيّون في مقاومة التشيّع المتطرّف في بلاد الشام[85]، فإنّ المصادر أشارت إلى انتشار هذا التشيّع وذيوعه، واستعانة بعض الحكّام الفئويين بهم لتحقيق مآربهم[86]

ولاحظَ ابنُ جبير أن نفوذ التشيّع كان قويّاً في شمال بلاد الشام، وأنّهم عمروا البلاد بمذاهبهم وفرقهم، ووصفهم بـ "أهل المذاهب المنحرفة والعقائد الفاسدة"[87]، مقابل أهل السنَّة الّذين ذكر أنّ "معاملاتهم صحيحة، وأحوالهم مستقيمة، وجادّتهم الواضحة في دينهم من اعتراض بُنَيَّات الطريق سليمة"[88]. ويحدّد طائفة من هؤلاء الشيعة هم الإسماعيليّة، وينعتهم بـ (الملاحدة) [89]، ويصفهم بالمروق من الإسلام والضلال[90] والكفر[91] . وكان عددهم في شمال بلاد الشام، كما يقول ابن جبير، لا يُحصى، وقد استطار شرُّهم وفسادهم، حتّى تجمّع النّاس عليهم من كلّ صَوْب، فاستأصلوهم[92]. وتحدّث في رحلته عن طائفة في بلاد الشام كان تعرف بـ (النبويّة) تصدَّت لهؤلاء الإسماعيلية وقاتلتهم أينما وجدتهم. وأتباع هؤلاء الطائفة "سُنِّيّون يدينون بالفتوّة وبأمور الرّجولة كلّها"[93].

وانتقد ابن جبير الفوضى المذهبيّة التّي سادت الديارَ الحجازيّة؛ فأكثرهم "فرق وشيع لا دين لهم قد تفرّقوا على مذاهبَ شتّى"[94]، واتّهمهم بحلِّ عُرى الإسلام، وَجَعلَ هذه البلاد أحقّ "بلاد الله بأن يطهِّرَها السّيفُ ويغسلَ أرجاسها وأدناسها بالدّماء المسفوكة"[95]. وقد كان لهذه الفوضى المذهبية آثار على العبادات المفروضة حتى غدا للحرم المكيّ "أربعة أئمّة سنيّة وإمام خامس لفرقة الزيديّة، "وهم روافض سبّابون.. ولا يجمّعون مع الناس، إنما يصلون ظهراً أربعاً ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها"[96]. وقد كان أشراف مكّة وحكّامها من هؤلاء الزيديّة. ونصّ ابن جبير في رحلته على واحد منهم هو الأمير مُكثر بن عيسى صاحب مكّة، وهو من ذريّة الحسين بن علي. ولكنّه كما وصفه ابن جبير "ممّا يعملُ غيرَ صالح"[97] وليس من أهل سلفه الكريم. وقد وَجَّهَ إليه في رحلته نقداً لاذعاً لأنّه منع النفقة في الحرم، فلا "يجد المتأجِّر من ذوي اليسار إليها سبيلاً في تجديد بناء أو إقامة حطيم أو غير ذلك"[98].

وقد اتّخذ بعض خطباء المساجد الدِّين وسيلة للتكسّب والاسترزاق. وينقل ابن جبير صورة ساخرة لخطيب المسجد النبويّ، وقد اعتلى المنبر، وخطب الخطبة الأولى، ثم جلس لينطلق غلمانه "يخترقون الصفوف، ويتخطَّوْنَ الرِّقاب كديةً على الأعاجم والحاضرين"[99]. ويصور إقبال المصلين على دفع ما يجدونه من مال ومتاع لهؤلاء الفتية، وهو جالس على المنبر يلحظ فتيانه المستجدين حتّى كاد وقت الصلاة يفوت "وهو قاعدٌ ينتظر اشتفاف صُبابة الكدية، وقد أراق عن وجهه ماء الحياء"[100]، فلما جُمع ما أرضاه قام وأكمل الخطبة وصلى بالناس.

واتخذت بعض الشعائر الدينية طابعاً احتفالياً، ونقل ابن جبير صوراً من الأجواء الاحتفالية الّتي تسود الحرم المكي في شهر رمضان المبارك، واحتفاء الناس باستقبال هذا الشهر المبارك[101]، غير أنه انتقد بعض البدع المستحدثة، من ذلك الضرب بالفرقعة ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان المغرب، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء وكذلك الضرب بها في صلاة التراويح. يسخر ابن جبير من هذا الأمر قائلاً: "وهي لا محالة من جملة البدع المحدثة في هذا المسجد المعظم"[102].

وعجب ابن جبير من احتفال أهل مكة بختم القرآن الكريم في الأيام الأواخر في شهر رمضان؛ حيث يتولَّى إمامة الناس في الصلاة صبيّ من أبناء أثرياء مكة المكرمة، ويحتفي به والده احتفاء كبيراً. ومما أثار حفيظته أنّه رأى صبياً لم يبلغ خمس عشرة سنة يؤمُّ الناس ليلة ثلاث وعشرين، وقد احتفل أبوه لهذه الليلة احتفالاً بديعاً، ثم يقوم هذا (الإمام الطفل) [103] على حدّ وصف ابن جبير له ويصعد المنبر وألقى في المصلين خطبته. وهنا يسخر ابن جبير من جمهور الحاضرين الذين استظرفوا هذا الخطيب واستنبلوه واستحسنوا خطبته مع أنها لم تحدث الأثر المطلوب في النفوس فـ (التذكرة إذا خرجت من اللسان لم تتعدَّ مسافة الآذان) [104].

ومن المشاهد التي أنكرها ابن جبير في موسم الحج تزاحم الحجاج وتدافعهم في أداء المناسك، وقد يؤدّي ذلك إلى وقوع المنازعات بين الحجاج، من ذلك ما كان في يوم

الانحدار من مِنى بين سودان أهل مكّة وبين الأتراك، إذ قامت بينهم "جولة وهوشة وقعت فيها جراحات وسلت السيوف، ورُميت السهام، وانتهبت بعض أمتعة التجار"[105].

وصور تزاحم الحجاج الأعاجم القادمين من العراق على دخول البيت العتيق تزاحماً أدى موت عدد منهم[106]. وقد أنكر ابن جبير إنكاراً شديداً مزاحمة النساء الرجال في هذا المشهد حتى "تضجت جلودهن طبخاً في مضيق المعترك الّذي حَمِيَ بأنفاس الشوقِ وَطيسُه"[107].

وعندما زار ابن جبير العراق نقل صوراً إيجابية لمظاهر الحياة الدينية والعمران الاجتماعيّ فيه، غير أنّ هذا لم يحجب عن عينيه بعض المظاهر السلبيّة، التي انتقدها بحدة؛ فقد أخذ على أهل بغداد تعاملهم بالرّبا وضعف الوازع الدينيّ في نفوسهم وتطفيف الكيل والميزان فـ "ما منهم من يحسن الله فرضاً"[108]، و"لا تكاد تظفر في خواص أهلها بإنسان ورع عفيف"، ويستثني ابن جبير من ذلك فقهاءهم المحدثين، ووعاظّهم المذكرين الّذين داوموا على وعظ النّاس وتنبيههم، غير أنهم يضربون معهم "في حديد بارد، ويرومون تفجيرَ الجلامد"[109].

رابعاً– صورة الآخر:

عاين ابن جبير في رحلته جماعات عرقية ودينية متعددة، وشاهد من هذه الجماعات أنماطاً من السلوك والعادات تخالف كثيراً ممّا ألفه في الأندلس، ما أثار دهشته واستغرابه. ويمكن أن ينظر إلى هؤلاء جميعاً على أنهم (آخر) بالمعنى العام لهذا المصطلح. غير أنّ الحديث هنا سيكون مقصوراً على صنف واحدٍ من هؤلاء كان ينظر إليه ابن جبير على أنه النقيض للشخصية العربية الإسلامية. وثمة صنفان من الفرنجة يمكن أن نميزهما في الرحلة، الصنف الأول: الفرنجة الذين كانوا يحتلون مساحات واسعة من ديار الإسلام في بلاد الشام، والصنف الثاني: الفرنجة الذين شاهدهم في صقلية.

لقد كانت نظرة ابن جبير إلى الفرنجة بصنفيهما مؤطرة بالعقيدة الإسلامية وموجهة بالمشاعر الدينية. أمّا الفرنجة في بلاد الشام، فقد مرّ في الديار التي كانوا يحتلونها مجتازاً، وورد ذكرهم في الرحلة بأسماء متعددة وَضَعَهَا جميعها مقابل الإسلام والمسلمين؛

كما في قوله: "فجبلُ لبنان المذكور هو حدٌّ بين بلاد المسلمين والإفرنج"[110]، وكما في قوله: "واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك"[111]. كما وصفهم بـ (العدوّ)، كما في قوله في سياق حديثه عن مدينة حمص: "وما ظنّك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة، وهو معقل العدوّ"[112]، ونعتهم بـ "أعداء الله"[113]، وذَكَرَهم بوصفهم الدينيَ صراحة مستخدماً كلمة (النَصارى). كما في وصف تجارهم بأنهم (تجار النّصارى) [114]، ووصف حصن الكرك بأنه "من أعظم حصون النصارى"[115]، ونعت ابن جبير صاحبةَ (حِصن تبنين) بأنها خنزيرة، وأنها "أم الملك الخنزير صاحب عكة"[116].

ويستنزل ابنُ جبير الدعواتِ واللعنَاتِ عليهم كلَّما اجتاز بلدة تحت سيطرتهم، ولا يفتأ يستخدم دعاء (دمَّرها) الله على كل مدينة كانوا يستوطنون فيها. وأحياناً يدعو أن يُعيد هذه البلاد إلى أيدي المسلمين ويطهّرها من أيدي المشركين[117].

ومع أنّ ابن جبير لم يكن في رحلته معنياً بأخبار الحروب بين المسلمين والفرنجة، غير أنّنا نجد في رحلته شذرات من حديث عن آثار هذه الحروب صاغها ابن جبير بلغة تعبيرية مؤثرة، كما في قوله يصف أسرى المسلمين الّذين شاهد جماعات منهم: "ومن الفجائع التي يعاينها من حَلَّ بلادَهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسوقتهن خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يُغني الإشفاق عنهم شيئاً"[118].

وهذه الصورة التي رسمها ابن جبير تركز على الجانب الدينّي لهم، وتستبعد قبولهم في ديار الإسلام أو التعايش معهم، لا لأنّهم نصارى بل لأنهم محتلّون رفعوا شعار الدين ضد الإسلام والمسلمين، لذلك حثَّ ابن جبير المسلمين في الديار المحتلة إلى عدم السُّكنى معهم، بل على الخروج من هذه الدّيار حتى لا يخترق هؤلاء الغزاة القيم الدينية والأخلاقية لهم، وذكر أنه ليست لمسلم "عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتازاً، وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين، لمشقّات وأهوال يعانيها في بلادهم ... فالحذرَ الحذرَ من دخول بلادهم"[119]، بل إنّ ابن جبير نفسه يشعرُ بالذَّنْب لأنّه أقام في

عكة المحتلة مدّة من الزّمن ينتظر المركب للسفر إلى الأندلس[120]. وحتّى يؤكّد هذا الخطر الّذي يمثّله الفرنجة على عقيدة الناس وأخلاقهم ذكرَ أنّ رجلاً مغربياً صحبَ الإفرنج في عكة، "وتخلّق بكثير من أخلاقهم، فما زال الشيطان يستهويه ويغريه إلى أن نبذ دين الإسلام فكفر وتنصَّر"[121].

لذا فقد بدت أنماط سلوك الفرنجة، وعاداتهم وأخلاقهم مثار استغراب ابن جبير واستهجانه؛ فهو عندما رأى عرساً إفرنجياً في صور وصفه بأنّه "من مشاهد زخارف الدنيا المحدَّثِ بها"[122]، واستغرب اختلاط النساء والرجال في هذا العرس، وكرّرَ في سياق وصفه الاستعاذة بالله من "رؤية المنظر الزخرفيّ المستعاذ به من الفتنة"[123].

وَفَقَدَت المدنُ الإسلامية التي احتلُّوها نقاءها وطهرها، كما يرى ابن جبير، وغدت حاملة لسماتهم السلبية، كما في قوله يصف مدينة عكة: "هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحطُّ الجواري المنشآت في البحر كالأعلام.. سككها وشوارعها تغصّ بالزحام.. تستعر كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلبانا، زفرة قذرة، مملوءة كلّها رجساً وعذِرة.. انتزعها الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المئة السادسة.. فعادت مساجدها كنائس، وصوامعها مضارب للنواقيس..."[124]. فالمدينة من الناحية الاقتصادية مدينة مزدهرة، وهي تضم لكونها ميناءً تجّاراً من أجناس متعددة، ولكنّ هذا التقدّم الماديّ لم يكن حائلاً بين ابن جبير ورؤية مظاهر الكفر فيها، وإبراز الجوانب السلبية الّتي تصف (نجس) هؤلاء القوم، واستغراقهم في حياة الكفر، وإصرارهم على طمس المعالم الإسلامية في هذه المدينة.

أمّا حديث ابن جبير عن الفرنجة خارج البلاد المحتلة فجاء في سياق مشاهداته في صقلية، وقد جاء حديثه عنهم متفاوتاً، ولعلّ سبب هذا التفاوت طبيعة معاملة الفرنجة للمسلمين في صقلّية. وقد رسم ابن جبير في بعض فقرات رحلته صورة إيجابية للتعايش السلميّ بين الفرنجة والمسلمين في بعض المدن الصقلّية، وعجب من المعاملة الطيّبة الّتي كان يعامل بها الملك غليام الثاني المسلمين في عاصمة ملكه، وتوفير الحماية لهم من فئات إفرنجية تعلن العداوة والبغضاء لهم، وفي ذلك يقول: "وشأن ملكهم هذا عجيب

في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتّخاذ الفتيان المجاذيب، وكلُّهم أو أكثرهم كاتمٌ إيمانه متمسك بشريعة الإسلام، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكنٌ إليهم في أحواله والمهم من أشغاله"[125].

ويوردُ ابن جبير في رحلته فقرات متعددة تصف هذا التسامح الدينيّ؛ فقد أقرَّ أهلُ (مسّينة) المسلمين على أملاكهم وضياعهم "وأحسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم"[126]، مقابل ضريبة يؤدونها لهم. وذكر أن طائفة من المسلمين تسكن مدينة شلفودي (جلفود) [127]. ولاحظ ابن جبير أن أهل مدينة (شرمة) انتهجوا سياسية ليّنة مع المسلمين، حتى يستميلوهم إلى دينهم، ما أوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل. [128] وقد بات ابن جبير في هذه المدينة "أحسن مبيت وأطيبه"[129]، وسمع الأذان، وصلّى في مسجدها التّراويح[130]، واجتاز في أثناء رحلته في صقلّية ضياعاً سكانها كلّهم مسلمون[131]، وعندما وصل ابن جبير مدينة (طرابنش) صلّى فيها صلاة عيد الفطر وقد "خرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات، فعجبنا من ذلك، ومن إغضاء النّصارى لهم عليه"[132]، بل إنّ ابن جبير نفسه عَبّرَ عن دهشته من عطف غليام على فقراء المسلمين الذين كانوا مع ابن جبير على المركب، ولم يجدوا مالاً يؤدونه لصاحبه، فدفع الأجرة عنهم، وخلّصهم[133].

غير أنّ ثمة وجهاً آخر للفرنجة نستشفه من رحلة ابن جبير؛ فهذا التّسامح الديني الذي اقتضته مصلحة غليام، والمصالح التجاريّة للفرنجة في بعض المدن الصقليّة لا يعني موت الأحقاد في النفوس، وزوال أسباب التعصب الدينية؛ فثمّة مشاهدات أوردها تصوّر منع المسلمين من أداء عبادتهم، وخوفهم من الجهر بها؛ فقد التقى في مدينة (مسّينة) فتى اسمه عبدالمسيح كان أحد وجوهها، فشكا له بأسًى بالغ من التعصّب الدينيّ ضدَّ المسلمين في المدينة، وقال له: "أنتم مُدِلُّون بإظهار الإسلام ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسّكون بعبادة الله، وأداء فرائضه سرّاً، معتقلون في ملكة كافر بالله قد وضع في أعناقنا ربقة الرق"[134].

ولا ريب في أنّ مثل هذا التعصّب يزرع الخوف في النفوس، ولا يوجد للطمأنينة والسكنية إليها سبيلًا، لذا وجدنا بعض المسلمين يضطر تحت طائلة تنكيل الفرنجة والإجحاف في فرض الضرائب المالية إلى الارتداد عن دينه. ويذكر ابن جبير فقيهاً من أهل مدينة (أطربنش) يدعى ابن زُرعة "ضغطته العمَّالُ بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الإسلام والانغماس في دين النصرانية، وَمَهرَ في حفظ الإنجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم"[135]. والتقى ابن جبير القائد أبا القاسم بن حمود، وهو من زعماء المسلمين في صقلية وأظهر له "من باطن حاله وبواطن هذه الجزيرة مع أعدائهم ما يبكي العيون دماً، ويذيب القلوب ألماً"[136]، حتى تمنّى – على كبر قدره – أن يُباع هو وأهل بيته حتّى يتخلّص ممّا هو فيه، ويسير إلى بلاد المسلمين.

بل إنّ المسلمين في صقلية لم يكونوا يأمنون على أعراضهم[137]. وقد ذكر ابن جبير أن أحد أعيان مدينة أطرابنش طلب من أحد الحجاج أن يقبل منه بنتاً صغيرة قاربت الإدراكَ، فإن رضيها تزوجها، وإن لم يَرْضَها زوّجها لرجل من أهل بلدته يرتضيه لها، حتى لا تقع في أيدي الفرنجة، ولا تتعرّض لمثل ما تعرضت له مثيلاتها من المسلمات[138].

لذلك، فإنّ ابن جبير لم يكن مأخوذاً بالمدن الصقلية التي زارها على الرغم من ازدهارها الاقتصاديّ والعمرانيّ؛ فقد رسم لمدينة (مسّينة) صورة قائمة على التضاد: تقدّمٌ ماديٌّ وخواءٌ روحيّ؛ فهي مدينة عامرة الأسواق، رخيصة الأسعار، ولكنّ ظلام الكفر خيَّم عليها، وملأها "نتناً ورجساً"[139].

وعلى الرّغم من المعاملة الحسنة التي كان غليام يعامل بها المسلمين في عاصمة ملكه، فإنّ ابن جبير انطلاقاً من حسِّه الإيمانيّ وصفه بالكفر، ويكرر الدعاء عليه كلّما ذكره، بمثل قوله: "خيَّبَ اللهُ سعيه، ولا تمَّمَ قصده"[140]، وقوله: "والله يقطع به، ويجعل الدائرة عليه"[141]، وقوله "والله يعين عليه، ولا يعينه"[142]، وإذا ذكر حُسن حريم الفرنجة فإنه يدعو أن يجعلها الله سَبْياً للمسلمين[143].

وهذه العداوة الدينيّة الّتي عاينها ابن جبير، واضطرت مسلمي صقلية إلى كبت شعورهم الديني، وملء قلوبهم توجساً وخوفاً؛ جلعت حديثه عن المسلمين فيها مشمولاً بالعطف الدينيّ، على شاكلة قوله: نقلًا عن لسان بعض المسلمين في صقلية " أنتم مُدِلُّون بإظهار الإسلام فائزون بما قصدتم له ... ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسّكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرًّا معتقلون في ملكة كافر بالله ، قد وضع في أعناقنا ربقة الرق [144] " كما ورد سابقًا .

خامسا– صورة القائد صلاح الدين في رحلة ابن جبير:

أُعجب ابن جبير بشخصية صلاح الدين الأيّوبيّ ، حتّى غدا هذا القائد يمثّل لديه نموجًا مشرقًا للقائد المسلم. وقد أثنى هذا الرّحالة على الملك الناصر صلاح الدّين في مواضع كثيرة من متنه الرّحليّ، ووصف بعض أعماله وإنجازاته. وغالباً ما كان يستذكره في سياق المقارنة بينه وبين حكّام عصره الذين كانوا يظلمون الرعيّة، ويستجيزون كيدها، كما في قوله: أمّا حكّام البلاد المشرقيّة فـ "يركبون طرائق من الظلم لم يُسمع بمثلها، اللّهم إلاّ هذا السلطانَ صلاح الدّين[145]".

لقد أدرك صلاح الدّين في سياق جهاده للفرنجة، أنّ تقوية الجبهة الدّاخليّة للأمّة وبثّ روح العدل والمساواة بين النّاس، والعمل على رفع الظلم عنهم، ورعايتهم والاهتمام بشؤونهم–هو الأساس الّذي يقوم عليه جهاد الفرنجة. ومن هنا يمكن أن يفهم اهتمام هذا القائد–ومن قبله نوار الدين زنكي– ببثّ العدل، ومكافحة الظّلم حتّى يستقطب النّاس جميعًا على درب الجهاد. ومن هنا يُفهم أيضًا اهتمام صلاح الديّن بإقامة المساجد والمدارس والخوانق والرّباطات، وجعْل تعلّم القرآن الكريم والسّنة المطهّرة محطّ اهتمام النّاس سواء أكانوا مجاهدين أم غير مجاهدين؛ وكأنّه أراد بذلك أن يسوّي بين الجهود الّتي يبذلها العلماء والفقهاء في تعليم النّاس أمور دينهم، وإنعاش الإسلام في نفوسهم، والجهود الّتي يبذلها المجاهدون في ميادين الجهاد، ومن ثمّ كانت جلّ المنشآت الّتي أمر بإقامتها تخدم هذه الغاية، أو غاية أخرى حثّ الإسلام عليها.

وتحدّث ابن جبير بأسًى بالغ عن المظالم الّتي كان يتعرّض لها الحجّاج في بعض الموانئ والمدن من عمّال الدواوين [146]، ونوّه بالجهود الّتي بذلها صلاح الدين لمواجهة هذه التجاوزات الّتي كان يتعرّض لها هؤلاء الحجّاج الوافدون من المغرب، فمنع تحصيل المكوس من الحجّاج، "ودفع عوضًا منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها"، فـ" كفى الله المؤمنين على يدي هذا السلطان العادل حادثا عظيما وخطبا أليما [147]". ولم يكن الأمر مقصورًا على ذلك، بل أمر بتأمين الطرق للحجّاج وغيرهم ليلاً، فلا يخشون السفر في ظلمته [148].

كما ذكر ابن جبير في رحلته خبر كتاب أرسله صلاح الدين إلى أمير مكة الأمير كان من أهمّ فصوله " التوصية بالحجاج والتأكيد في مبرّتهم وتأنيسهم ورفع أيدي الأعداء عنهم والإيعاز في ذلك على الخدم والأتباع والأوزاع ، وقال – أي صلاح الدين– : إنه إنما نحن وأنت متقلّبون في بركة الحجاج[149]".

واهتمّ ابن جبير بتقصّي المنشآت الإسلاميّة والحضريّة الّتي أمر صلاح الدين بإقامتها مثل: المساجد والمدارس والمستشفيات والخوانق والرّبط، وكان يصف في كلّ مدينة ينزل فيها هذه المنشآت، فعندما زار الإسكندريّة أشاد باهتمام الملك الناصر بإعمار هذه المدينة، فبنى فيها المدارس والمحارس[150] ، كما نوّه باهتمامه بالغرباء الوافدين فيقول :" واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك [151] "، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل إن السلطان صلاح الدين " وكّل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء [152] ".

ويشتد إعجاب ابن جبير بصلاح الدين لِما علم من رأفته وحبه للمساكين فيقول :" ومن أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عيّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغا ما بلغوا [153] " ، وقد اجتهد صلاح الدين أن لا ينقطع هذا العون

عن هؤلاء القوم، فَعَيَّنَ أمينًا من قِبله للإشراف على توزيع الخبز عليهم وكانت تصل في بعض الأحايين إلى ألفي خبزة في اليوم الواحد[154]. ومن شدة حرص صلاح الدين على توفير الطعام لهؤلاء المغاربة، فقد أمر بأن يؤخذ من ماله الخاص في حال قصُر شيء من مال الأوقاف. وصلاح الدين يتورع عن أخذ أموال الجزية والزكاة سوى" ثلاثة أثمانها والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة [155] ". وتبدو لغة الإعجاب بهذا القائد الفذ في لغة ابن جبير تصريحا، فيقول:" وهذا السلطان الذي سن هذه السنن المحمودة ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها في المدة البعيدة هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب وصل الله صلاحه وتوفيقه [156] " .

ومن مآثر السلطان الذي أعجب بها ابن جبير شفقة وعدل صلاح الدين وحبه الخير لجميع المسلمين سواء أكان ذلك داخل حدود بلاده أم خارجها. فإنه – أي السلطان صلاح الدين – ذات يوم خرج يتفقد أحوال الناس خارج بلده فتلقى جماعة لفظتهم الصحراء المتصلة بطرابلس وذهبت أجسامهم من شدة الجوع والعطش. وقد علم بأن هؤلاء يقصدون بيت الله الحرام، فرق لحالهم وأوجب لكل واحد منهم ما يعينه ويغنيه عن الحاجة[157] . ويرى ابن جبير أن مآثر صلاح الدّين ومقاصده في العدل ومقاماته في الذبّ عن حوزة الدين لا تحصى لكثرتها [158]، وأنّ الحديث عن مآثره يضيق عنها الحصر في رحلته [159] .

ولا يفتأ صلاح الدين يقيم المدارس في مصر حتّى يُعفِّي آثار المذهب الإسماعيليّ الفاطميّ. ويستثير هذا الصنيع، إعجاب ابن جبير فتنقدحُ في ذهنه صورة من المجانسة البلاغية المشتقة من اسم (صلاح الدين ) فيقول " فسبحان الذي جعله صلاح دينه كاسمه [160] " .

وقد أثنى ابن جبير على جهاد صلاح الدين للفرنجة، وقدّمه في صورة البطل المسلم الذي يدافع عن حياض الإسلام، حتّى جعله رحمة من الله للمسلمين، وذلك إذ

يقول: " وما له من المآثر المأثورة في الدنيا والدين ، ومثابرته على جهاد أعداء الله ... ، فسبّب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات ، فهو لا يأوي لراحة ولا يخلد لدعة، ولا يزال سرجه مجلسه [161] "

ويرى ابن جبير في صلاح الدين ذلك القائد الحازم ذا البصيرة الثاقبة والشخصية العسكرية المتبصرة لما حولها. ويضرب على أحد الأمثلة وهو بناؤه للقناطر غربي مصر، حيث أبدع في بنائها ورسم حدودها حتى اتصلت بصحراء مفضية بالإسكندرية " وله في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة وإعداد لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع سلوك العساكر بسببه، فأعد ذلك مسلكا في كل وقت إن احتيج إلى ذلك [162] ".

لذلك كلّه فقد استحوذ الملك الناصر قلوب المسلمين في عصره، ولهجت الألسنة بالثناء عليه، والدّعاء له، ففي مشهد مهيب من مشاهد الحج يصف ابن جبير الناس وهم يؤمّنون خلف دعاء خطيب الحرم المكي، حتّى إذا بلغَ الدعاءَ للأمير صلاح الدين خفقت الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان[163] . ويعلقّ ابن جبير على ذلك قائلاً " وَحقّ ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم وحسن النظر لهم ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم[164] ".

و ينقل ابن جبير في موضع آخر صورة أخرى تشبه السابقة تمثّل حبّ الأمّة للملك الناصر، ولا سيّما حجّاج بيت الله الحرام، فقد كان المؤذّن يقف إثر صلاة المغرب يدعو للخليفة العباسي ولأمير مكّة، فإذا ما دعا لصلاح الدّين " ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة، وتخفق الألسنة بذلك خفقا يذيب القلوب خشوعا لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل وألقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهدائه في أرضه[165].

وينقل ابن جبير ما سمعه من أحد فقهاء بلاد الشام وزعمائها وكان هذا العالم في محفل من علماء البلدة وفقهائها ثلاث مناقب للسلطان صلاح الدين :" إحداها أن الحلم من سجاياه ، فقال وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه : أما أنا فلأن أخطئ في العفو أحب إلي من أن أصيب في العقوبة [166] ". ويشبه ابن جبير حلم صلاح الدين في هذا الموقف برجل كان مضرب الحلم عند العرب وهو الأحنف ابن قيس، يقول : " وهذا في الحلم مَنْزَع أحنفي [167]". والخصلة الثانية التي ذكرها ذلك العالم الفقيه عن صلاح الدين، هي الكرم؛ فحين تُنوشدت في مجلسه الأشعار وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجوادهم، فقال صلاح الدين " والله لو وهبتُ الدنيا للقاصد الآمل لما كنت استكثرها له [168] ". ويشبّه ابن جبير جود صلاح الدين وكرمه في مثل هذه المجالس بكرم الخليفة العباسي هارون الرشيد أو والخليفة جعفر المتوكل أو جعفر البرمكي " وهذا في الكرم مذهب رشيدي أو جعفري [169] ". أما الخصلة الثالثة، فهي العدل فقد " حضره أن أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والأثرة مستعديا على جمّال ذكر أنه باعه جَملًا معيبًا أو صرف عليه جَملًا بعيب لم يكن فيه، فقال السلطان وما عساي أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للعامة والخاصة ، وأوامره ونواهيه متمثلة وإنما أنا عبد الشرع وشحنته ، والشحنة عندهم صاحب الشرطة، فالحق يقضي لك أو عليك [170] "، فإن عدل صلاح الدين لم يمنعه من أن ينتصف للمظلوم وإن كان المشتكي من خاصته ومقربيه. لذا رأى ابن جبير فيه صورة العدل التي عرف بها الفروق عمر بن الخطاب، فقال :" وهذا في العقد مقصد عمري [171] "، ثم يختم ابن جبير بعد أن نقل هذه الخصال الثلاث عن صلاح الدين من ذلك العالم الفقيه:" وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخرا، والله يمتع ببقائه الإسلام والمسلمين بمنّه [172] " .

وهكذا، فإنّ ابن جبير على الرغم من أنّه لم يحظ بلقاء القائد صلاح الدين الأيوبي –وقد كان شغوفا إلى لقائه– فإنّه رسم صورة هذا القائد العظيم خلال رحلته

لإعجابه الشديد به، ولما أودع الله فيه من الشمائل والمفاخر ما لم يودعها في غيره من القادة في ذلك الزمان، فرأى فيه الحاكم الصالح الذي جمع بين الشجاعة والخشوع لربّه.

وبعد،

فقد أضفت المشاعر الإسلاميّة لابن جبير غلالة من الألق الدينيّ على رحلته منذ لحظة انطلاقها حتّى عاد الرجل إلى دياره في الأندلس، فهو في كلّ حركة من حركاته في رحلته يتّجه بكليّته إلى الله سبحانه، يلتمس منه العون والتأييد. كما جعل وكده في أن يتتبّع المعالم الدينيّة في البلدان الّتي ألم بها؛ فأكثر من وصف المساجد والمزارات والأربطة ومجالس العلم والوعظ، وكان شديد الحساسية لمظاهر السلوك الّتي تخالف الشريعة الإسلاميّة، فهو لا يفتأ يستقصي ما يشاهده ويحمل بشدّة على ما يعتقد أنّه بدع ومعتقدات خاطئة، وينكر بقوّة ما يرى من أمور تخالف دستور الشريعة في سياسة النّاس وتدبير شؤونهم، وينتقد أنماط السلوك التي يرى أنّها لا تليق بالإنسان المسلم وتطامن من قدره. وفي المقابل فقد كان يعبّر عن إعجابه بمظاهر السلوك الّتي تنطلق من مبادىء تلك الشريعة.

ونقل ابن جبير في رحلته مشاهد تستجيش المشاعر لزيارة البيت الحرام أثناء تأديته فريضة الحجّ، وكأنّه أراد أن يشوّق النّاس إلى زيارة الديار الحجازيّة، وأداء فريضة الحجّ. ولعلّه بذلك يردّ بطريقة غير مباشرة على بعض الآراء الّتي دعت الأندلسيين إلى تعطيل هذه الفريضة لانعدام الأمن على المال والنّفس، بالإضافة إلى أنّ رحلة الحجّ في حدّ ذاتها تعبّر عن وحدة لا تنفصم. كما أنّها كانت آنذاك صورَة حيّة من الأُلفة الجماعيّة الّتي تبعث في النّفوس قوّةً على مقابلة التّحدّي بما هو أقوى منه.

وانطلق ابن جبير من مشاعره الإسلاميّة عندما وصف الآخر الإفرنجيّ في بلاد الشام. وجلّ الصور التي رسمها لهم تصوّر عداءهم للإسلام وأهله، لذا فإنّه رأى أنّه ليس

من المكن قبولهم في ديار الإسلام أو التعايش معهم، لا لأنّهم نصارى، بل لأنهم محتلّون رفعوا شعار الدين ضد الإسلام والمسلمين.

وأخيرًا، فإنّ الرحلة في بعض جوانبها يتداخل فيها السرد الرحليّ بالسرد السير ذاتيّ؛ لذا فإنّها تشفّ عن رجل دقيق الملاحظة يهتمّ بالتفاصيل، ويحدّق في المشهد الذي يصفه، ويستقصي جوانبه. كما تصوّر رجلاً عميق التقوى، قويّ الإيمان، صحيح العقيدة. وأدّى هذا إلى أن تستمدّ الرحلة وحدتها وتفرّدها من سمات هذه الشخصيّة الّتي أضفت عليها مشاعرها وظلالها من مبتدئها حتّى منتهاها.

## الحواشي والتّعليقات

([1])انظر: كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ، ص325، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ، طبعة2، 1987)ج1ص325.

([2])لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية،بيروت،1424هـ، ج2ص146).

([3])من هذه الدّراسات:حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس( مدريد1967 ) 432؛ شوقي ضيف: الرحلات( القاهرة ط4 1987 ) 70؛ نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب( بيروت1962 ) 167-169؛ نقولا زيادة: روّاد الشّرق العربيّ في العصور الوسطى( بيروت1989) 67-69؛ عبد القدّوس الأنصاري: مع ابن جبير في رحلته( القاهرة1977)؛ زكي محمد حسن: الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى( بيروت1981) 70-88؛ عثمان موافي: لون من أدب الرحلات: دراسة نقديّة( الإسكندرية1973 ) 15؛ حسني محمود: أدب الرحلات عند العرب، رحلات أمين الرّيحانيّ نموذجاً( عمان1995 ) 16-23؛ حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة( الكويت، العدد138، حزيران1989 ) 144-146، 231؛ إبراهيم عوض: رحلة ابن جبير، دراسة في الأسلوب(القاهرة1992)3؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ،1: 300؛ إبراهيم خليل: أوراق في اللغة والنّقد الأدبيّ (عمّان1993)33-34؛ إحسان عبّاس: دراسة في الرحّالة ابن جبير الأندلسيّ البلنسيّ الكنانيّ وآثاره الشعريّة والنثريّة (بيروت2001)23؛ عبد الواحد ذنون طه:الرحلات المتبادلة بين المغرب الإسلاميّ والمشرق(بيروت2004)126؛فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربيّ(القاهرة2002)384؛ نوال الشوبكة: أدب الرحلات الأندلسيّة والمغربيّة حتّى نهاية القرن التاسع(عمّان2008)62؛ وجيه عضاضه: الرحلات عند العرب في العصور الوسطى، مجلّة تاريخ العرب والعالم، السّنة الأولى، عدد12، تشرين الأوّل( بيروت1979

) 32-33؛ فلاح شاكر أسود: ابن جبير في رحلته، قراءة في الجوانب الجغرافيّة للرحلة،مجلّة المورد، عدد4، مجلد18( بغداد 1989 ) 72؛ علي حسن مال الله: العراق في رحلة ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى، المرجع السابق 59.).

([4])ابن الخطيب، الإحاطة ج2ص147.

([5])انظر: د. محمد مؤنس عوض: الرّحالة الأوروبيّون في مملكة بيت المقدس الصّليبيّة 1099-1187( القاهرة 1992) 16- 28. ومن هذه الرّحلات: رحلة الحاجّ الروسيّ ابن دانيال الراهب في الدّيار المقدّسة 1106-1107م، ترجمة سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة(عمان 1992)50-62، 69، 122؛ الحاجّ سايلوف: وصف رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس و الأراضي المقدّسة 1102-1103، ترجمة سعيد البيشاوي (عمان 1997) 23-34، 43.

([6])ابن جبير،1980،رحلة ابن جبير، بيروت، ص57

([7])رحلة ابن جبير ص41

([8])رحلة ابن جبير ص50

([9])رحلة ابن جبير ص51

([10])رحلة ابن جبير ص51

([11]) رحلة ابن جبير ص 18

([12])رحلة ابن جبير ص 18

([13])رحلة ابن جبير ص284

([14])رحلة ابن جبير ص284

([15])رحلة ابن جبير ص294

([16])رحلة ابن جبير ص46

([17])رحلة ابن جبير ص40

([18])رحلة ابن جبير ص94

(19)رحلة ابن جبير ص94

(20)رحلة ابن جبير ص97

(21)رحلة ابن جبير ص 206

(22)رحلة ابن جبير ص17

(23)رحلة ابن جبير ص18

(24)رحلة ابن جبير ص19

(25)رحلة ابن جبير ص20

(26)رحلة ابن جبير ص20

(27)رحلة ابن جبير ص34

(28)رحلة ابن جبير ص36

(29)رحلة ابن جبير ص37

(30)رحلة ابن جبير ص196

(31)رحلة ابن جبير ص197

(32)رحلة ابن جبير ص198

(33)رحلة ابن جبير ص334

(34)رحلة ابن جبير ص244

(35)رحلة ابن جبير ص244

(36)رحلة ابن جبير ص245

(37)رحلة ابن جبير ص239

(38)رحلة ابن جبير ص239

(39)رحلة ابن جبير ص238

(40)رحلة ابن جبير ص239

(41)رحلة ابن جبير ص247

(42)رحلة ابن جبير ص256

(43)رحلة ابن جبير ص359

(44)رحلة ابن جبير ص264

(45)رحلة ابن جبير ص259.

(46) ابن رشد الجد، مسائل ابن رشد الجد، تحقيق محمد الجيب التجاني، دار الجيل: بيروت، ودار الآفاق الجديدة: المغرب، ط2، 1993 ج1 ص164.

(47) من هذه الرحلات: رحلة ابن عربي عبالهادي التازي، رحلة الرحلات: مكة في مائة رحلة مغربين ورحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي مكة المكرة والمدينة المنورة، 2005، ص54وما بعدها ورحلة ابن جبير، ورحلة العبدري، انظر عبدالله بن عثمان الياقوت، أدب الرحلات الحجازية عن الأندلسيين من القرن السادس حتى سقوط غرناطة، رسالة دكتوراه، جامعة أمر القرى، 2001/ ص74، عواطف محمد يوسف، الرحلات المغربية والأندلسية، مطبعة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص97.

(48) انظر: ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، دار الثقافة، بيروت ص 288-289.

(49) انظر: المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ج4 ص3-36.

(50) محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، مطبعة المخزن، تطوان، 1993، ص25.

(51)رحلة ابن جبير ص58

(52)رحلة ابن جبير ص58

(53)رحلة ابن جبير ص58

(54)رحلة ابن جبير ص58

(55)رحلة ابن جبير ص57

(56)رحلة ابن جبير ص158

(57)رحلة ابن جبير ص158

(58)رحلة ابن جبير ص91

(59)رحلة ابن جبير ص92

(60)رحلة ابن جبير ص92

(61)رحلة ابن جبير ص92

(62)رحلة ابن جبير ص95

(63)رحلة ابن جبير ص93

(64)رحلة ابن جبير ص95

(65)رحلة ابن جبير ص93

(66)رحلة ابن جبير ص85

(67)رحلة ابن جبير ص85

(68)رحلة ابن جبير ص85

(69)رحلة ابن جبير ص60

(70)رحلة ابن جبير ص61

(71)رحلة ابن جبير ص62

(72)رحلة ابن جبير ص67

([73])رحلة ابن جبير ص67

([74])رحلة ابن جبير ص96

([75])رحلة ابن جبير ص57

([76])رحلة ابن جبير ص97

([77])رحلة ابن جبير ص97

([78])رحلة ابن جبير ص97

([79])رحلة ابن جبير ص98

([80])رحلة ابن جبير ص98

([81])رحلة ابن جبير ص98

([82])رحلة ابن جبير ص99

([83])رحلة ابن جبير ص100

([84])رحلة ابن جبير ص56

([85]) انظر: ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد: تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق، 1983، من 468. ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر أحمد: الكواكب الدرية في السيرة النبوية، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت 1971، ص130 ابن واصل، جمال الدين محمد: مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، دار إحياء التراث القديم، القاهرة، 1953ج4 ص47-48.

([86]) انظر: ابن العديم، كمال الدين عمر: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحيقي سامي الدهان، المعهد الفرنسي ، دمشق، 1968 ج2 ص145.

([87])رحلة ابن جبير ص224

([88])رحلة ابن جبير ص224

(89)رحلة ابن جبير ص224

(90)رحلة ابن جبير ص254

(91)رحلة ابن جبير ص225

(92)رحلة ابن جبير ص225

(93)رحلة ابن جبير ص252

(94)رحلة ابن جبير ص54

(95)رحلة ابن جبير ص55

(96)رحلة ابن جبير ص78

(97)رحلة ابن جبير ص57

(98)رحلة ابن جبير ص104

(99)رحلة ابن جبير ص180

(100)رحلة ابن جبير ص180

(101)رحلة ابن جبير ص122

(102)رحلة ابن جبير ص123

(103)رحلة ابن جبير ص128

(104)رحلة ابن جبير ص94

(105)رحلة ابن جبير ص159

(106)رحلة ابن جبير ص194

(107)رحلة ابن جبير ص159

([108])رحلة ابن جبير ص194

([109])رحلة ابن جبير ص195

([110])رحلة ابن جبير ص229

([111])رحلة ابن جبير ص260

([112])رحلة ابن جبير ص260

([113])رحلة ابن جبير ص260

([114])رحلة ابن جبير ص260

([115])رحلة ابن جبير ص260

([116])رحلة ابن جبير ص274

([117])رحلة ابن جبير ص282

([118])رحلة ابن جبير ص280

([119])رحلة ابن جبير ص280

([120])رحلة ابن جبير ص280

([121])رحلة ابن جبير ص281

([122])رحلة ابن جبير ص278

([123])رحلة ابن جبير ص278-279

([124])رحلة ابن جبير ص276

([125])رحلة ابن جبير ص297

([126])رحلة ابن جبير ص297

([127])رحلة ابن جبير ص301

([128])رحلة ابن جبير ص302

([129])رحلة ابن جبير ص303

([130])رحلة ابن جبير ص303

([131])رحلة ابن جبير ص307

([132])رحلة ابن جبير ص310

([133])رحلة ابن جبير ص295

([134])رحلة ابن جبير ص299-300

([135])رحلة ابن جبير ص313

([136])رحلة ابن جبير ص314

([137])رحلة ابن جبير ص306

([138])رحلة ابن جبير ص315

([139])رحلة ابن جبير ص296

([140])رحلة ابن جبير ص310

([141])رحلة ابن جبير ص310

([142])رحلة ابن جبير ص303

([143])رحلة ابن جبير ص308

([144]) رحلة ابن جبير ص300

([145])رحلة ابن جبير ص55

(146) رحلة ابن جبير ص13-14

(147) رحلة ابن جبير ص 31

(148) رحلة ابن جبير ص 31

(149) رحلة ابن جبير ص 74

(150) مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسفرين والفقراء

(151) رحلة ابن جبير ص 15

(152) رحلة ابن جبير ص 15

(153) رحلة ابن جبير ص 16

(154) رحلة ابن جبير ص 16

(155) رحلة ابن جبير ص 16

(156) رحلة ابن جبير ص 16

(157) رحلة ابن جبير ص 17

(158) رحلة ابن جبير ص 17

(159) رحلة ابن جبير ص 17

(160) رحلة ابن جبير ص 23

(161) رحلة ابن جبير 270

(162) رحلة ابن جبير ص 27

(163) رحلة ابن جبير ص 73

(164) رحلة ابن جبير ص 73

(165) رحلة ابن جبير ص 80

(166) رحلة ابن جبير ص 270

(167) رحلة ابن جبير ص 270

(168) رحلة ابن جبير ص 270

(169) رحلة ابن جبير ص 270

(170) رحلة ابن جبير ص 271

(171) رحلة ابن جبير ص 1271

(172) رحلة ابن جبير ص 271

## المصادر والمراجع

1- إبراهيم خليل،1993أوراق في اللغة والنّقد الأدبيّ ، عمّان، دار الينابيع.

2-إبراهيم عوض، 1992،رحلة ابن جبير، دراسة في الأسلوب، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق.

3- ابن بسام الشنتريني،**د.ت**، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،بيروت، دار الثقافة.

4-ابن جبير،1980 رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر.

5-ابن دانيال الراهب، 1992،رحلة الحاجّ الروسيّ ابن دانيال الراهب في الدّيار المقدّسة 1106-1107م، ترجمة سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة، عمّان، دار الشروق للنشر والتوزيع.

6-ابن رشد الجد، 1993مسائل ابن رشد الجد، تحقيق محمد الجيب التجاني، بيروت، دار الجيل، المغرب، ودار الآفاق الجديدة.

7-ابن العديم، كمال الدين عمر،1968، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحيقي سامي الدهان،دمشق، المعهد الفرنسي.

8- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر أحمد،1971 الكواكب الدرية في السيرة النبوية، تحقيق محمود زايد، بيروت، دار الكتاب الجديد.

9-ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد: 1983،تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار حسان.

10-ابن واصل، جمال الدين محمد: مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب،1953 تحقيق جمال الدين الشيال،القاهرة، دار إحياء التراث القديم.

11- إحسان عبّاس،2001،دراسة في الرحّالة ابن جبير الأندلسيّ البلنسيّ الكنانيّ وآثاره الشعريّة والنثريّة ، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ.

12-الحاجّ سايلوف،1997،وصف رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس و الأراضي المقدّسة 1102-1103، ترجمة سعيد البيشاوي، عمان دار الشروق للنشر والتوزيع.

13حسني محمود، 1995، أدب الرحلات عند العرب، رحلات أمين الرّيحانيّ نموذجاً، عمّان، الوكالة العربيّة للنشر والتوزيع.

14-حسين محمد فهيم، 1989، أدب الرحلات، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد138، حزيران1989 .

15-حسين مؤنس،1967،تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس،القاهرة، مكتبة مدبولي.

16-زكي محمد حسن،1981،الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت،دار الرّائد العربيّ.

17- شوقي ضيف،1987،الرحلات، القاهرة، دار المعارف، ط4.

18-عبالهادي التازي،2005، رحلة الرحلات: مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.

19-عبد القدّوس الأنصاري،1977 ، مع ابن جبير في رحلته، القاهرة،المطبعة العربيّة الحديثة.

20-عبد الواحد ذنون طه،2004، الرّحلات المتبادلة بين المغرب الإسلاميّ والمشرق، بيروت، دار المدار الإسلاميّ.

21-عبدالله بن عثمان الياقوت، 2001، أدب الرحلات الحجازية عن الأندلسيين من القرن السادس حتى سقوط غرناطة، رسالة دكتوراه، جامعة أمر القرى، ص74.

22-عثمان موافي، 1973 ،لون من أدب الرحلات: دراسة نقديّة، الإسكندريّة، مؤسسة الثقافة الجامعيّة.

23-علي حسن مال الله،1989،العراق في رحلة ابن جبير خاصة ورحلات العرب الأخرى، مجلّة المورد، عدد4، مجلد18، بغداد،ص 59-62.

24-عواطف محمد يوسف، 1996، الرحلات المغربية والأندلسية، الرّياض، مطبعة الملك فهد الوطنية.

25-فؤاد قنديل،2002،أدب الرحلة في التراث العربيّ، القاهرة، مكتبة الدار العربيّة للكتاب.

26- فلاح شاكر أسود،1989، ابن جبير في رحلته، قراءة في الجوانب الجغرافيّة للرحلة، مجلّة المورد، عدد4، مجلد18، بغداد، ص 72-75.

27-كراتشكوفسكي،1987، تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ، ترجمة صلاح الدّين عثمان هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ،ط2.

28-لسان الدين بن الخطيب، 1424هـ، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق يوسف علي الطويل، بيروت، دار الكتب العلمية.

29-محمد المنوني، 1993،ركب الحاج المغربي، تطوان، مطبعة المخزن.

30-محمد مؤنس عوض: 1992،الرّحالة الأوروبيّون في مملكة بيت المقدس الصّليبيّة 1099-1187، القاهرة، مكتبة مدبولي.

31-المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد،1939، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا و إبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي وسعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت وعبد السلام هراس، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

32- نقولا زيادة،1962، الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب العالميّ.

33-نقولا زيادة، 1989، روّاد الشّرق العربيّ في العصور الوسطى، بيروت، دار لبنان للطباعة والنشر.

34-نوال الشوبكة،2008، أدب الرحلات الأندلسيّة والمغربيّة حتّى نهاية القرن التاسع، عمّان، دار المأمون للنشر والتوزيع.

35- وجيه عضاضه،1979،الرحلات عند العرب في العصور الوسطى،مجلّة تاريخ العرب والعالم، السّنة الأولى،عدد12، تشرين الأوّل،1979 ص32-33.